السليقة وأصوات المد العربية

بقلم الدكتور

عبد العظيم محمد عبد الحليم

مدرس أصول اللغة بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

استوقفنى نص معجب لأبى إسحق الزجاج يصور السليقة العربية أجمل تصوير فى جنوحها إلى اختيار أصوات مد معينة للمغايرة والتفريق بين المواقع النحوية للكلمات فى الجملة ، فقد ذهب أبو إسحق الزجاج إلى أن ذلك الاختيار إنما كان تابعاً للاستثقال والاستخفاف . فإن العرب كانوا إذا استثقلوا صوت مد استعملوه فى المواضع التى يقل ورودها ، وإذا استخفوه استعملوه فى المواضع التى يكثر ورودها ثم صار هذا عندهم كالسليقة . يقول فى الكلام عن رفع الفاعل ونصب المفعول : إنه (إنما فعل ذلك للتفريق بينهما ، ثم يسأل نفسه : فإن قيل : فهلا عكست الحال فكانت فرقا أيضاً ؟ قيل : الذى فعلوه أحزم ، وذلك أن الفعل لا يكون له أكثر من فاعل واحد ، وقد يكون له مفعولات كثيرة ، فرفع الفاعل لقلته ، ونصب المفعول لكثرته ، وذلك ليقل فى كلامهم ما يستثقلون ويكثر فى كلامهم ما يستخفون ، فجرى ذلك فى وجوبه ووضوح أمره مجرى شكر المنعم وذم المسىء ، فى انطواء الأنفس عليه وزوال اختلافها فيه)[1] .

فقانون المغايرة دفع العربى إلى التفريق بين المواقع النحوية للكلمات فى الجملة وهو ما يفسره الزجاج بقوله : (إنما فعل ذلك للتفريق بينهما) .

وقد تمت هذه المغايرة عن طريق أصوات المد التى مثلت علامات الإعراب ، هذه الأصوات التى أدت إضافة إلى ما أدته من تمييز بين المواقع النحوية وظيفة أخرى هى : تحويل الكلمات العربية الداخلة فى جملة إلى كلام غير منقطع .

---

(١) الخصائص جـ ١ ص ٤٩ .

ذلك لأن الحركة مظهر من مظاهر الاستمرار فى الأداء ، ولعل ما قاله الخليل بن أحمد من أن (الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به)[1] خير شاهد على صحة ما نقول .

ويمكن القول : أن أصوات المد العربية عندما استعملها العربى سليقة كان ينظر إلى ما نسميه نحن الآن : مواقع إعرابية على نحو يتمثل فى أن الضمة إنما تمثل فكرة الإسناد ، وأن الكسرة تمثل فكرة الإضافة ، أما الفتحة فقد استعملها لتدل على أن الموقع لا يمثل فكرة إسناد ولا إضافة[2] ، وكانت أصوات المد القصيرة (الضمة والفتحة والكسرة) خير معوان له على هذه المغايرة .

ولم يقتصر قانون المغايرة لديه على أصوات المد القصيرة ، وإنما امتد إلى أصوات المد الطويلة لتأخذ بعداً جديداً فى التفريق بين مواقع إعرابية نشأت عن استعمال ألفاظ . مثل :

---

(١) الكتاب جـ ٤ ص ٢٤١ .

(٢) هذا لا يعنى أن الفتحة ليست علامة إعراب ، ولا دالة على شىء ، أو أنها الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب التى يراد أن تنتهى الكلمة بها أو أنها بمثابة السكون فى لغة العامة كما يزعم الأستاذ إبراهيم مصطفى فى كتابه (إحياء النحو ص ٤١) . وإنما يعنى أن الفتحة كانت مرعية فى سليقة العربى يعبر بها حيث لا إسناد ولا إضافة ؛ لأن قوانين العربية كانت تحكمها الصلة بين المعنى واللفظ ، وكان حدس العربى هادياً له ، يضبط العلاقة بين اللفظ والمعنى ، ويوجهها دوما نحو الصواب اللغوى ، وقد تصدى للرد على زعم الأستاذ إبراهيم مصطفى كل من الأستاذ محمد أحمد عرفة والأستاذ الدكتور عبد الغفار حامد هلال . انظر كتاب النحو والنحاة للأستاذ محمد أحمد عرفة ص ١١٥ وما بعدها ، وعلم اللغة بين القديم والحديث للأستاذ الدكتور عبد الغفار هلال ص ٢٧٣ وما بعدها .

(أ) جمع المذكر السالم .

(ب) المثنى .

(ج) الأسماء الستة .

فغاير فى الجمع والمثنى بين حالتين فقط (فالمثنى فى ذهنه لون من الجمع) فجعل الواو - أخت الضمة - علامة على الرفع فى الجمع ، والألف فى المثنى ، فقد اكتفى العربى بالألف التى هى دالة على التثنية وجعلها أيضاً علامة الرفع اختصاراً ، فالألف فى ذهنه دالة على معنى التثنية ، وعلى معنى الرفع أيضاً .

أما فى حالة النصب والجر فكانت الياء العلامة الإعرابية لكل منهما . ولكن الياء فى المثنى صوت ساكن بينما هى فى جمع المذكر صوت مد طويل .

وفى الأسماء الستة تمت المغايرة بين المواقع الإعرابية الثلاثة بالواو للمرفوعات وهى أخت الضمة ، والألف للمنصوبات وهى أخت الفتحة ، والياء للمجرورات وهى أخت الكسرة .

إن هذا يعنى أن العربى ذا السليقة كان يجنح إلى لون خاص من ألوان أصوات المد للتعبير عن الإسناد وإلى لون آخر حين يريد الإضافة .

فإن لم يكن إسناد ولا إضافة جنح إلى الفتحة ، كان إيراعى أن يرفع لأن الفاعلية أو العمدية توجب الرفع وكان يجر إذا أراد الإضافة ويفتح فيما عدا ذلك ، لأن قوانين العربية كانت تحكمها الصلة بين المعنى واللفظ ، وهذه الصلة حكمت مدار تفكيره عند صوغ كلامه فى سائر الأغراض ، فكما وضعوا لفظ السماء لما علا ، والشمس للكوكب النهارى المضىء ، أتوا بياء النسب فقالوا : عربى وفارسى ، إذا أرادوا النسب إلى العرب والفرس ، وأتوا بعلامة التثنية فقالوا : رجلان عندما أرادوا التفرقة بين المثنى والمفرد والجمع ، ووضعوا علامات للجمع فقالوا : مسلمون ومسلمات عندما أرادوا

الدلالة على جمع مذكر أو مؤنث ، وأتوا بعلامة التأنيث فقالوا : مسلمة ومؤمنة للتفرقة بين المذكر والمؤنث .

وكسروا الراء فى مكرم عندما أرادوا من كان منه الإكرام ، وفتحوها عندما أرادوا من وقع عليه الإكرام ، كل ذلك فعلوه بالسليقة مدفوعين بالعلاقة التى تشد اللفظ إلى المعنى ، وكانت المعانى فى أذهانهم ظاهرة ومنضبطة ، فرفعوا الكلمة عند إحداثهم معنى الفاعلية فيها ، ونصبوها عند إحداث معنى المفعولية ، وجروها عند إحداث معنى الإضافة ، وعندما جاء النحاة وأرادوا تقعيد القواعد لاحظوا عند مراقبتهم الكلام العربى أن كل كلام لابد فيه من كلمتين رئيسيتين تنسب إحداهما إلى الأخرى على طريق الثبوت أو على طريق النفى ، وما عدا هاتين الكلمتين فهو من متعلقاتها[1] .

ويقول أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوى البغدادى فى كتابه (الأصول فى النحو)[2] .

« اعلم أن أصول الكلام جملتان : فعل وفاعل ، ومبتدأ وخبر » .

أراد العرب أن يدلوا على هاتين الكلمتين اللتين هما ركنا الإسناد فدلوا عليهما بالضم ، وأرادوا أن يدلوا على الكلمات التى ليست رئيسية فدلوا عليها بالفتح أما إذا كانت مضافة فدلوا عليها بالكسرة ، فالمعانى المرتبة فى أذهانهم هى المقتضية لهذه الحركات فى أواخر الكلم ومحدث هذه المعانى فى كل لفظ هو المتكلم ، هذه الحركات يراعيها العربى كما يراعى المهم من أمره - كما يقول ابن جنى[3] وقد جعلوا الحركات دوال على المعانى .

---

(١) انظر الرضى فى شرح الكافية جـ ١ ص ٢١ .

(٢) الأصول جـ ٢ ص ٢٧٦ طبعة مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٧ م .

(٣) الخصائص جـ ٢ ص ١٦ .

كما جنحوا أحيانا إلى المشابهة ـ وهى لون من التوافق الحركى ـ فنصبوا ما كان عمدة حقه الرفع من اسم أن وخبرها ، فقد شابهت أن وأخواتها الأفعال التى بمعناها فنصبوا بها الجزء الأول . بل أن بعضهم غالى فى المشابهة فنصب بها الجزأين فقال : ياليت أيام الصبا رواجعا .

وقال :

كأن أذنيــــه إذا تشوفا قادمة أو قلمـــا محرفا

كانوا يفعلون ذلك بالسليقة لأن المعانى عند العربى كانت واضحة منضبطة عند كل من المتكلم والسامع ، فالمتكلم يمكنه أن يرفع الكلمة عند أحداثه معنى الفاعلية فيها ، وأن ينصبها عند أحداثه معنى المفعولية ، وأن يجرها عند أحداثه معنى الإضافة وصاحب السليقة لم يهتم بالقاعدة فى ذلك العهد ، إذ لم تكن هناك قاعدة إلا حدسه اللغوى الذى لا يرى إلا الصواب فيما يقول .

ثم جاء النحاة فأسموا ذلك الإحساس المترجم إلى معانى الفاعلية والمفعولية ... ال .

يقول الرضى[1] : إن النحاة فطنوا إلى أن حركات الإعراب دوال على معان ، وفطنوا إلى أن هذه المعانى لابد فى الكلام ، لذلك اختاروا الدلالة عليها أخف الدوال وهى أبعاض حروف العلة ، وفطنوا إلى أن معانى التثنية والجمـــع والنسب وما ماثلها لمـا لم تكن لازمة فى كل كلام لم يلتمسوا لها فى الدوال .

ويعلل لسبب تسمية حركات الإعراب والبناء بقوله[2] :

(وإنما قيل لعلم الفاعل رفع لأنك إذا ضممت الشفتين لإخراج هذه الحركة ارتفعتا عن مكانهما ، فالرفع من لوازم مثل هذا الضم وتوابعه ، فسمى حركة

(١) انظر شرح الكافية جـ ١ ص ٢٠ وما بعدها .
(٢) شرح الكافية جـ ١ ص ٢٤ .

البناء ضما وحركة الإعراب رفعاً ؛ لأن دلالة الحركة على المعنى تابعة لثبوت نفس الحركة أولا ، وكذلك نصب الفم تابع لفتحه، كأن الفم كان شيئاً ساقطا فنصبته أى أقمته بفتحك إياه فسمى حركة البناء فتحا ، وحركة الإعراب نصبا ، وأما جر الفك الأسفل إلى أسفل وخفضه فهو كسر الشيء ، إذ المكسور يسقط ويهوى إلى أسفل ، فسمى حركة الإعراب جرا وخفضا ، وحركة البناء كسر ، لأن الأولين أوضح وأظهر فى المعنى المقصود من صورة الفم من الثالث .

وقد وصفت هذه الأصوات التى حددت معالم الإعراب فى كتب النحاة بالأصوات اللينة ، فقد وصفها سيبويه بالأصوات اللينة . (الألف والواو والياء) وكان وصفه لها باللين مقابلا لوصف سائر الأصوات فى لغتنا العربية بالشدة أو الرخاوة أو التوسط بينهما وهو يريد بوصف اللين أن يشير إلى درجة رابعة فى التحكم بإخراج الهواء فى أثناء أداء الصوت اللغوى ، ففكرة اللين عند سيبويه لا تعنى الضعف فى مقابل الشدة ، بل تشير إلى معنى السهولة فى إخراج الصوت بلا إحتباس أو تضييق ، وذلك واضح فى وصف سيبويه لهـــذه الأصوات اللينة ، فقد ذهب إلى أن الألف والواو والياء تدخل معها أصوات المد القصيرة وهى أصوات عدها سيبويه أجزاء من الألف والواو والياء ـ أصوات غير مهموسة وهى حروف مد ولين ومخارجها متسعة لهواء الصوت (وليس من الحروف أوسع مخارج منها ولا أمد للصوت ، فإذا وقفت عندها لم تضمها بشفة ولا لسان ولا حلق كضم غيرها[1]) .

وسيبويه بملاحظاته هذه يوافق ما يقوله علماء الأصوات فى عصرنا الحديث ، فأصوات اللين هذه يمكن بها إطالة التصويت ومطله كما أنها أصوات ذات طابع موسيقى ذات قوة إسماع عالية (فليس من الحروف

---

(١) الكتاب جـ ٤ ص ١٧٦ .

أوسع مخارج منها ، ولا أمد للصوت) فحرية مرور الهواء فى أثناء نطقها واضحة بحيث لايدانيها فى ذلك أى صوت لغوى آخر (فمخارجها متسعة لهواء الصوت) وفى حالة خلوصها المد لا تتعلق بشىء من جهاز النطق فلا (تضمها شفة ولا لسان ولا حلق كضم غيرها) .

فإذا قارنا بين ما ذكره سيبويه وبين ما يقوله الدكتور دانيال جونز ، نجد توافقا كليا بين كل من التعريفين عند كليهما : يقول دانيال جونز أن صوت المد : (صوت مجهور يخرج الهواء عند النطق به على شكل مستمر من الحلق والفم ، دون أن يتعرض لتدخل الأعضاء الصوتية تدخلا يمنع خروجه أو يسبب فيه احتكاكا مسموعا[1]) .

لقد كان النحاة الأقدمون على طريق قويمة حين نظروا إلى أصوات المد العربية نظرة نمت عن إحساسهم الخاص بأصوات اللغة التى وظفت لتؤدى دور ما نسميه الآن بالسليقة العربية ، فنالت أصوات المد اهتماما كبيراً ، وكان ما قدموه وسيظل معيناً ثريا يمد الباحثين بالكثير ، وكانت ملاحظاتهم المبكرة على هذه الأصوات دقيقة بارعة ، على الرغم من إشاراتهم المتكررة إلى صعوبة وصفها نظراً لخلو هذه الأصوات من ظاهرة الاحتكاك التى يمكن أن تكون وسيلة جيدة لتبين مواضع إحداث الأصوات اللغوية على نحو ما يحدث فى الصوامت ، ويعلل رضى الدين الإستراباذى ذلك بعدم القدرة على معرفة ما يجرى فى داخل جهاز النطق ؛ لأن ذلك محجوب بالشفتين والأسنان ، فلا يمكن لنا إدراك طريقة إخراج هذه الأصوات[2] .

---

(١) انظر النص الأصلى للتعريف بكتاب الدكتور دانيال جونز .

An outline of English Phoneics P. 23 :

Avowel (in normal speesh) is difined as avoiced sound in forming which the air issues in continuous streem through the pharynx and mouth there being no narrowuig such as wonld cause audible friction.

(٢) شرح الشافية جـ ٢ ص ٢٧٦ .

غير أن هذه الصعوبة فى تحديد صفات أصوات المد ومواضعها التشريحية لم تمنع اللغويين القدامى من النظر إلى أصوات المد على أنها طائفة مميزة من الأصوات اللغوية ، لها خصائص معينة ، وكانت ملاحظة الخليل بن أحمد المبكرة التى ذهب فيها إلى أن (الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به) فى الحقيقة فهما أوليا لوظيفة صوت المد فى اللغة ، فالبنية اللغوية العربية تفرق تفريقا واضحا بين الصوامت وأصوات المد فى الوظيفة . إذ أن اللغة العربية تعتمد الصوامت فى بيان المعنى العام للكلمة ، ومن أجل ذلك جنح اللغويون العرب إلى أن يطلقوا على هذه الأصوات مصطلح « الأصول » وذهبوا إلى أنها هى التى يتركب منها الكلام العربى ومنها وحدها يتكون جذر الكلمة العربية[1] . من نحو القاف والتاء واللام فى نحو : قتل وقاتل وقتال وقاتل وقتيل إلخ . . . إذ أن المعنى العام فى كل هذه المفردات هو فكرة القتل ، فالأصول تمثل جذراً ثابتا يتغير معناه الصرفى بوجه عام من الفعلية إلى المصدرية أو الإسمية وفروعها من خلال دخول أصوات المد عليه ، فتتغير هذه الأصول تغيراً مستمرا من بناء صرفى إلى آخر تبعاً لنوعية أصوات المد الداخلة على هذه الأصول .

ونظام الكتابة العربية يتجنب كتابة أصوات المد فى صلب الكلمة ، لا سيما إذا كانت أصوات المد قصيرة ، ويعتمد طريقة « الشكل » بوضع رموز أصوات المد القصيرة فوق حروف الكلمة أو تحتها .

والمتتبع لتاريخ الكتابة العربية يلاحظ أن اللغة قد عزفت طوال أحقاب

---

(١) الكتاب جـ ٤ ص ٢٤٢ قال الخليل : « والبناء هو الساكن الذى لا زيادة فيه .

طويلة عن كتابة أصوات المد القصيرة أصلا ، بل إنها جنحت أحيانا إلى ذلك فى أصوات المد الطويلة أيضاً ، وما نلاحظه فى كلمات معدودات الآن فى اللغة من أمثال : ذلك ولكن وهذا ، يقوم دليلا على صحة ذلك .

ونظر الآن طريقة الكتابة العربية لا تدون أصوات المد ، فإن اللغويين العرب ظلوا ينظرون إلى هذه الأصوات على أنها أصوات طارئة متغيرة من بناء صرفى إلى آخر . فهى تخضع للتغير أو السقوط بتأثير التحول من بناء صرفى إلى آخر أو بتأثير الموقع الإعرابى ، إلى جانب أنها فى كل أحوالها غير مستقلة فى تغيرها أو انقلابها أو سقوطها عما يكتنفها من تأثير الأصوات التى تجاورها ، فكان من جراء ذلك أن نزع اللغويون العرب أشد ما نزعوا إلى دراسة تلك الأحوال فيما أطلقوا عليه ظاهرة الإعلال ، ولم يعنوا بالجانب الصوتى العام لهذه الأصوات إلا إلماماً ، غير أن ما ورد عنهم فى هذا الباب يأتى قريبا جدا مما جاء به البحث الصوتى الحديث .

وأول ما ورد من إشارة إلى أصوات المد جاء على لسان أبى الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ هـ ، فى تلك القصة المشهورة عنه حين استعان بكاتب من هذيل وقال له : « خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد فإذا فتحت شفتى فانقط نقطة واحدة فوق الحرف ، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف ، وإذا كسرتها فاجعل النقطة فى أسفله ، فإذا أتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة ، فاجعل نقطتين[1] » .

وأول ما يمكن استخلاصه من هذا النص هو : أن اختلاف أوضاع الشفتين فى أثناء إصدار هذه الأصوات يحكى طرفا من أطراف ما أسميناه السليقة التى تجنح إلى ضم الشفتين عندما تكون الفكرة دائرة حول إسناد ،

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٦٠ .

وأن الكسرة إنما يعبر بها إذا كانت الفكرة إضافة ، أما الفتحة فإنها تستعمل حيث لا توجد فكرة إسناد ولا توجد إضافة .

وقد أخذت أصوات المد القصير أو ما يعرف بالحركات أسماءها فى العربية من هذه الأوضاع التى تتخذها الشفتان فى أثناء إصدار هذه الأصوات من ضم وفتح وكسر ، وواضح أيضاً فى نص أبى الأسود أن مصطلح (حركات) جاء أيضاً من حركات الشفتين . ويتضح ذلك قوله : (فإذا أتبعت هذه الحركات غنة) ، وما فعله أبو الأسود أيضاً يشير إلى فكرته عن أصوات المد من أنها أصوات لا تدخل فى صلب الكلمة وإنما هى لواحق توضع فوق الحرف أو تحته لتشير إلى طريقة نطقه فحسب ، وقد ظلت هذه الفكرة سائدة إلى الآن فى نظام الكتابة العربية .

وجاء الخليل بن أحمد من بعده فلم يدخل أصوات المد القصيرة فى جملة الأصوات اللغوية العربية التى تحدث عنها ، فقد رأى أن أصوات المد القصيرة أجزاء من أصوات المد الطويلة : الألف والواو والياء ، وقد نقل ذلك سيبويه عنه[1] إلى جانب أنه عنى فى أبحاثه الخاصة بأصوات اللغة بلون واحد هو الأصول التى تصلح أن تكون جذراً للكلمة العربية لينشىء معجماً يستند فى تقليباته الصوتية إلى جذر الكلمة وأصولها ، وهو أمر لا دخل لأصوات المد القصيرة فيه .

وقد ذكر الخليل أثناء حديثه عن الأصوات اللغوية العربية طائفة منها ميزها عن غيرها ، أطلق عليها مصطلح (الحروف الهوائية) أو (حروف الجوف) وهذه الأصوات هى : الألف والواو والياء ، وعلل هاتين التسميتين

---

(١) العين جـ ١ ص ٦٤ ، ٦٥ ، وانظر الكتاب جـ ٤ ص ٢٤١ .

بأن هذه الأصوات (تخرج من الجوف)[1] وكان يقول كثيراً : (الألف اللينة والواو والياء هوائية أى أنها فى الهواء) .

كما ذكر سيبويه عن الخليل : أن الفتحة والضمة والكسرة أجزاء من الألف والواو والياء[2] ، وهذا يعنى أنها كانت فى رأى الخليل أصواتاً هوائية لا مخرج لها مثلها فى ذلك مثل : الألف والواو والياء ، ولكنها تختلف عنها فى الكمية فحسب ، إذ أنها أقل كمية ، فالخليل نظر إلى الحركات نظرة خاصة أخرجها عن مجموعة الأصوات اللغوية العربية الأصول ، وقد وصفها بأنها زوائد[3] مشيراً بذلك إلى أنها لا تدخل فى أصوات الأصول التى تكون جذر الكلمة فى العربية .

ووصفه لها بالزوائد لا يقلل من أهميتها فى النظام الصوتى العربى ، فقد اهتم الخليل بهذه الأصوات القصيرة اهتماماً شديداً ووضع لها رموزاً فى نظام الكتابة العربية لا نزال نحتفظ به إلى الآن ، فقد رأى أن رموز النقط التى وصفها أبو الأسود الدؤلى قبله غير واضحة ، فكان أن اشتق رموزاً جديدة أكثر دقة من رموز الألف والواو والياء .

وكانت فكرته عن الوظيفة اللغوية التى تؤديها هذه الأصوات فى الكلام فكرة صحيحة ، إذ ذهب إلى أنها إنما تلحق الحرف ليوصل إلى التكلم به[4] ، فأهمية أصوات المد فى اللغات عامة إنما تكمن فى قدرتها على تجميع الصوامت ، وإعطائها قوة فى الإسماع ليوصل إلى التكلم بها .

---

(١) العين جـ ١ ص ٦٤ .
(٢) الكتاب جـ ٤ ص ٢٤٢ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٤١ .
(٤) الكتاب جـ ٤ ص ٢٤٢ .

ويدرك من أتى بعد الخليل قيمة هذه الصوامت فى بناء الكلمات ومدى انتشارها فى الكلام وزيادة نسبة تكرارها بالنسبة لغيرها من الأصوات ، لأنها نواة المقطع والتفاف الأصوات الأخرى حولها لتكون المقطع ، يقول أبو محمد اليزيدى مؤدب الخليفة المأمون (١٣٨ — ٢٠٢ هـ) .

وخلة اللفظ فى الياءات أن ذكرت

كخلة اللفظ فى اللامات والألف

وخصلة الراء فيها غـــير خافية

فاعرف مواقعها فى القول والصحف[1]

فإطالة الصوت القصير وتقصير الصوت الطويل يؤدى إلى سوء الفهم واختلاف الأمر على السامعين ، فضلا عما يبدو منه نابيا فى الآذان غير مقبول ولا مستساغ ، فالحركات عبارة عن أصوات تعدل الصيغة أو الوزن ، وقد عرف القدماء معنى الأصوات التى أسموها الحركات ، وعرفوا الفرق بينهما وبين الأصوات الصامتة فى النطق والصفات ، وتبينوا أن هناك حركات قصيرة ، وأخرى طويلة ، وجاء تعبيرهم عن الفرق بين الطول والقصر دقيقا يدل على العمق والتذوق ، وقد بين ذلك ابن جنى فى قوله : (اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين ، وهى : الألف والياء والواو ، فكما أن هذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحركات ثلاث ، وهى : الفتحة والكسرة والضمة ، فالفتحة بعض الألف ، والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو ، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة ، والكسرة الياء الصغيرة ، والضمة الواو الصغيرة ، وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة)[2] .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص ٢٧ تحقيق فوزى عطوى — دار صعب بيروت .

(٢) سر صناعة الإعراب جـ ١ ص ١٩ .

وقد لعب قانون المغايرة فى سليقة العربى دوراً كبيراً ، فى مجال الأفعال غايروا بين الماضى والمضارع ، فمعظم الأفعال العربية تميل إلى مبدأ المغايرة (polrity) أو المخالفة[1] على رأى ابن جنى (ذلك أنه قد دلت الدلالة على وجوب مخالفة صيغة الماضى لصيغة المضارع ، إذ الغرض فى جميع هذه المثل إنما هو لإفادة الأزمنة ، فجعل لكل زمان مثال مخالف لصاحبه ، وكلما ازداد الخلاف كانت فى ذلك قوة الدلالة على الزمان ، فمن ذلك أن جعلوا بإزاء حركة فاء الماضى سكون فاء المضارع وخالفوا بين عينيهما فقالوا : ضرب يضرب ، وقتل يقتل ، وعلم يعلم)[2] .

فإذا كان الفعل مفتوح العين فى الماضى ، جاء مكسوراً فى المضارع أو مضموما إلا إذا كان الحرف الثانى أو الثالث حرف حلق ، عند ذلك تؤثر حركة العين الفتح ، فقالوا : رحل يرحل ، وقطع يقطع ، فإذا ما أتت الأفعال مكسورة العين فى الماضى والمضارع عدت شاذة أو من تداخل اللغات .

أما الأفعال المضمومة العين فى الماضى والمضارع ، فقد أتت لجعل المعنى من الصفات الغريزية ، أو لاثبات صفة من الصفات أو المبالغة .

وهذه السليقة تؤيدها القوانين الصوتية الحديثة التى تجعل الضمة والكسرة أصواتا ضيقة (Close) يقابلها الفتحة التى هى الصوت المتسع (Open)[3]، فإذا أراد العربى المخالفة اختار للأول الفتح فى مقابل الكسر أو الضم ، أو اختار للأول الكسر فى مقابل الفتح .

---

(١) التعبير بكلمة Polarity بمعنى المخالفة فى هذا المقام أدق من التعبير بكلمة Dissimilation التى تعنى المخالفة أيضاً لأن كلمة Polarity هنا تضم إلى جانب معنى المخالفة معنى آخر وهو التفرد . انظر الأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس ص١٤٣ .

(٢) الخصائص جـ ١ ص ٣٧٥ .

(٣) الأصوات اللغوية . د . إبراهيم أنيس ص ٤١٠ .

فقالوا : نصر ينصر وضرب يضرب وشرب يشرب .

ويدلنا على أن السليقة هدت إلى اختيار الفتح فيما كانت عينه أو لامه حرف حلق فى كل من الماضى والمضارع ، أن حروف الحلق كلها أصوات خلفية ، واختيار الفتح يجعل الفم فى وضع مريح إلى جانب أن اللسان يكون فى هيئة تجعله يؤثر الفتح ، هكذا كانت طبيعة التلفظ عند العرب ، فقد كرهوا توالى الأصوات المتحدة الصفة والمخرج وإنما نوعوا بينها ، وأخذوا يعرضون أفضل الكلمات التى لا تنبو عن الذوق ويستريح لها اللسان ، فنراهم يفضلون المخارج المتباعدة التى تبدأ من الحلق إلى الفم إلى الشفتين كما فى قولهم : (ع ل م) فإذا ما بدأ الصوت من الحلق إلى الشفتين ثم عاد إلى الفم كان أقل شيوعا كما فى قولهم : (ع م ل) أما تلك الحروف التى تبدأ بحرف من حروف الفم يليه آخر من حروف الحلق ثم ثالث من حروف الشفة فما قل شيوعه ، وأقل التراكب وأندرها التى تبدأ بحروف الشفة ثم حروف الحلق ، ثم حرف الفم كما فى كلمة (م ع د) ويمكننا تبين الفرق فى سهولة النطق وإخراج الصوت بين (ع د م) و (م ع د) .

ولهذا أمكن للغويين العرب أن يصلوا بسهولة إلى قوانين تعرف بالكلمات العربية الأصيلة وتميزها عن الدخيلة والمعربة فقالوا[1] .

(لا تجتمع الجيم مع القاف فى كلمة عربية مثل : المنجنيق ، ولا تجتمع الصاد والجيم فى كلمات العرب مثل : صولجان ، ولا تكون النون قبل راء إلا فى الكلمات الأعجمية مثل (نرجس) ولا تكون الزاى بعد دال كما فى كلمة (مهندز) الأجنبية ، التى صارت فى لهجاتنا الآن مهندس[2] ،

---

(١) المزهر للسيوطى جـ ١ ص ١٩٤ .
(٢) دلالة الألفاظ د . إبراهيم أنيس .

ولا تكون الشين بعد لام . ولا تسمح اللغة العربية باجتماع الكاف والقاف فى كلمة واحدة إلا بحواجز ، ولا باقتران الجيم بالظاء ، ولا القاف والظاء ولا الغين ، ولا تسمح بتجمع أصول رباعية أو خماسية دون وجود حرف من أحرف الذلاقة الستة (الراء واللام والنون والفاء والباء والميم[1]) .

ولقد هدى سليقة العربى فى هذا تكيف أعضاء النطق مع الصوت القريب والبعيد والمختلف مخرجا وصفة ، وقد صور سيبويه هذه الظاهرة خير تصوير فى كتابه ، وكان حديثه عنها على أساس صوتى ، فقد ذكر أن الشائع الجارى على ألسنة الفصحاء فتح عين المضارع من الثلاثى (إذا كانت الهمزة أو الهاء أو العين أو الحاء أو الغين أو الخاء لاما أو عينا ، وذلك قولك : (قرأ يقرأ ، وجبه يجبه وقلع يقلع وفرغ يفرغ ، وذبح يذبح وسلخ يسلخ) . . وأورد أمثالا كثيرة تؤكد صدق نظريته . . هذا إذا كانت هذه الحروف فيه لامات ، أما إذا كانت عينا فهو كقولك (سأل يسأل وذهب يذهب وبعث يبعث وشغر يشغر وذخر يذخر) وذكر أيضاً أمثله كثيرة لما كانت عينه حرف حلق . وبين السبب فى فتح هذه الحروف الحلقية قائلا : (وإنما فتحوا هذه الحروف لأنها سفلت فى الحلق . فكرهوا أن يتناولوا حركة ما قبلها بحركة ما ارتفع من الحروف ، فجعلوا حركتها من الحرف الذى فى حيزها وهو الألف ، وإنما الحركات من الألف والياء والواو ، وكذلك حركوهن إذا كن عينات ، ولم يفعلوا هذا بما هو من موضع الواو والياء ، لأنهما من الحروف التى ارتفعت ، والحروف المرتفعة حيز على حدة ، فإنما تتناول المرتفع حركة من مرتفع ، وكره أن يتناول الذى قد سفـــل حركة من هذا الحيز)[2] .

---

(١) دراسة للصوت اللغوى د . أحمد مختار عمر ص ٢٣٤ .

(٢) الكتاب جـ ٤ ص ١٠١ .

وسيبويه بهذا النص يربط صورة الفعل بظاهرة الميل إلى الانسجام بين الصوامت والحركات ، فإذا سفل مخرج الصوت الصامت فى الحلق فإن الحركة المناسبة له تكون من أقرب المواضع إليه ، والفتحة هى أنسب ما يمكن أن يسبق الصوت الحلقى أو يلحقه بحكم كونها أوسع الحركات[1] .

فأما إذا كانت عين الكلمة أو لامها من الأصوات المرتفعة فمن المناسب أن تكون الحركة السابقة على اللام أو اللاحقة للعين من الموضع الأقرب إليها ، أى كسرة أو ضمة ، نظراً لتقدم مخرجهما فى الفم . فأعضاء النطق تجد سهولة فى إخراج الأصوات كلما اختلفت المخارج وتباعدت ، ويتعثر اللسان كلما تقاربت الأصوات مخرجا أو صفة ، كما أن المتحدث يجد عسراً فى نطق الأصوات الشديدة التى تكلفه جهداً عضليا فيستبدلها بأخرى لا تحتاج إلى هذا الجهد العضلى . ومن الأصوات الشديدة التى تحتاج إلى جهد عضلى ، القاف والجيم والهمزة ويليها حروف الحلق ، العين والحاء والغين والخاء أما الأصوات المحببة إلى الإنسان وتتداولها الألسنة فهى : اللام الميم والنون والراء والفاء ، ثم أصوات الصفير : السين والصاد والزاى والشين .

وتحتل الحروف الذلقية المكانة الأولى فى معجم الصحاح ، كما يتردد صوت الواو والياء فى أول الكلمة أو وسطها أو آخرها[2] ويذكر الدكتور

---

(١) ما ذكره سيبويه من مناسبة الفتحة للحروف الحلقية وأنها فى حيزها ، وأنهم كرهوا أن يتناول الذى سفل من حروف الحلق حركة من حيز مرتفع هو حيز الكسرة والضمة يتفق تماما مع أحدث التفسيرات الصوتية الحديثة لأصوات المد ، وما يقوله الدكتور دانيال جونز فى كتابه :

An outline of english phonitics.

ص ٣١ ، ٣٢ الطبعة السابعة .

(٢) دراسة إحصائية لجذور معجم الصحاح باستخدام الكومبيوتر على حلمى موسى ص ١٧ ، ١٨ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٨ م .

عبد الرحمن أيوب أن الحركات الطويلة الألف والواو والياء وحركاتها القصيرة الفتحة والضمة والكسرة لها قوة الإسماع الأولى[1] ونجد الياء تدل على صغر الشيء والتقريب والتأنيث ، كما يقرر ذلك جسبرسن وبلومفيلد والدكتور إبراهيم أنيس[2] ، فقد لوحظ أن الكسرة وما يتفرع عنها من ياء المد ترمز في كثير من اللغات إلى صغر الحجم أو إلى قرب المسافة ، وفي لغتنا العربية نجد أن الياء هي علامة التصغير وأن الكسرة علامة التأنيث ، ويقولون : إن ميل اللسان إلى الكسرة دليل التحضر ، والبعد عن البداوة التي تؤثر الضم، على حين تؤثر المجتمعات المدنية والراقية الكسر طلباً للخفة ، وذلك موجود في لغتنا العربية (فإذا التقت الياء والواو في موضع واحد . وكانت الأولى منهما ساكنة ، فإن الواو تدغم في الياء ، إن كانت قبلها أو بعدها في الكلام كله نحو : الطي من طويت ، والواو الياء ، ونحو الحي من الحيوان ، الياء قبل الواو[3]) .

---

(١) أصوات اللغة د . عبد الرحمن أيوب ص ١٣٥ .

(٢) دلالة الألفاظ د . إبراهيم أنيس ص ٧٦ ، ٨٦ ، ٨٧ .

(٣) المعجم العربي نشأته وتطوره د . حسين نصار جـ ١ ص ٢٤٤ .

وبعد :

فهذه دراسة بينت الدور الهام لأصوات المد العربية طويلها وقصيرها فى أداء السليقة العربية لما أسماه النحاة قواعد النحو فيما بعد .

وقد استعرضنا كيف جنحت سليقة العربى إلى اختيار هذه الأصوات للمغايرة والتفريق بين مواقع إعرابية أراد العرب التعبير عنها لبيان المعنى فى سهولة ويسر .

وقد عبرت هذه الحركات أصدق تعبير عما يجول بخاطره سواء قدم ما عبر عنه فى حديثه أو أخره ، فالمعانى منضبطة فى ذهنه ومرتبة يهديها ذلك القانون الذى وضعه فى مخيلته ، فإذا قدم المفعول وقال زيداً ضربت أدى نفس المعنى الإعرابى فى قوله : ضربت زيداً ، وإن كان التعبير الأول يضيف معنى آخر هو الاهتمام بالمفعول به .

هذه السليقة التى هداها هاد لا يضل ولا ينسى جحدها البعض فأنكر أن تكون اللغة العربية معربة فى بادىء أمرها وادعى أن النحاة وضعوا هذه القواعد وضعاً من عند أنفسهم ثم ألزموا بها الناس مع أن الدراسات اللغوية الحديثة تؤيد تلك القوانين الصوتية التى مال إليها العربى فى حديثه مما نسميه الآن السليقة .

وقد أيد البحث هذه القوانين وأظهر إلى أى مدى تكيفت أعضاء النطق عند العربى مع الصوت القريب والبعيد والمختلف مخرجاً وصفة ، فعندما أراد المخالفة جعل الضمة والكسرة وهى أصوات ضيقة فى مقابل الفتحة وهى الصوت المتسع كما جعل من الضمة والفتحة والكسرة صلة بين المعنى واللفظ حكمت سائر تفكيره عند صوغ كلامه فى مختلف الأغراض .

مصادر ومراجع البحث

١ ــ أصوات اللغة : للدكتور عبد الرحمن أيوب ـ القاهرة ١٩٦٣ مطبعة دار التأليف .

٢ ــ الأصوات اللغوية : د . إبراهيم أنيس ـ مطبعة لجنة البيان العربي الطبعة الثانية ١٩٥٠ .

٣ ــ الأصول : لأبي بكر محمد بن سهل السراج النحوى البغدادى ـ طبعة مؤسسة الرسالة ١٩٨٧ م .

٤ ــ البيان والتبيين للجاحظ : تحقيق فوزى عطوى ـ دار صعب بيروت بدون تاريخ .

٥ ــ الخصائص : لأبي الفتح عثمان بن جنى ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٢ م .

٦ ــ الفهرست : لابن النديم ـ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت بدون تاريخ .

٧ ــ العين : للخليل بن أحمد الجزء الأول ـ تحقيق عبد الله درويش ـ الطبعة الأولى ١٩٦٧ م .

٨ ــ الكتاب : لسيبويه ـ تحقيق وشرح عبد السلام هارون ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م .

٩ ــ المزهر : للسيوطى ـ تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين طبعة دار إحياء الكتب العربية بدون تاريخ .

١٠ ــ المعجم العربي نشأته وتطوره : للدكتور حسين نصار ـ طبعة دار مصر للطباعة بدون تاريخ .

١١ ــ النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة : للأستاذ محمد أحمد عرفه ـ مطبعة دار السعادة بدون تاريخ .

١٢ — دراسة إحصائية لجذور معجم الصحاح باستخدام الكومبيوتر على حلمى موسى ـ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٨ م .

١٣ — دراسة الصوت اللغوى : د . أحمد مختار عمر ـ القاهرة ١٩٧٦ .

١٤ — دلالة الألفاظ : د . إبراهيم أنيس ـ القاهرة مكتبة الأنجلو ١٩٧٦ .

١٥ — سر صناعة الإعراب : لأبى الفتح عثمان بن جنى ـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين مطبعة الحلبى الطبعة الأولى ١٩٥٤ م .

١٦ — شرح الشافية : للشيخ رضى الدين محمد بن الحسن الاستراباذى النحوى ـ تحقيق محمد نور الحسن وآخرين طبعة دار الفكر العربى ١٩٧٥ م .

١٧ — شرح الكافية للشيخ رضى الدين محمد بن الحسن الاستراباذى النحوى ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٢ .

١٨ — علم اللغة بين القديم والحديث : د . عبد الغفار حامد هلال ـ مطبعة الجبلاوى ـ الطبعة الثانية ١٩٨٦ م .

مراجع أجنبية

1 — An outline of English Pho netics. Dr. Daniel Jones Cambridge 1957. الطبعة السابعة